

أهـوم اءرب

سوفوكليس

للأستاذ دريني خشبة

—

ظل سوفوكليس بمد المسرح اليوناني بروائع دراماته نيفاً وستين سنة ، فكان عمراً محدوداً مباركاً متصل الجهاد ، وكانت حياته كلها كالحديقة الجميلة الفناء باسمه بالزهر يانعة بالثمر حافلة بالطير مزدهرة بالألوان

ولد سوفوكليس سنة ٤٩٦ قبل الميلاد، في كولونوس ، وكان أبوه سوفيلوس تاجر أسلحة ذا ثروة واسعة فنشأ ولده تنشئة راقية وضمن له حياة مترفة مليئة بالناعم ، وثقافة أثينية هي إلى الأدب والفن ، أقرب منها إلى العلم والفلسفة ، ويبدو ذلك واضحاً جلياً في جميع ما تركت لنا يد المفاء من دراماته التي بلغت ثلاثاً وعشرين ومائة فلم يصلنا منها غير سبع

ويبالغ التاريخ في وصف جمال سوفوكليس إذ هو صبيّ وإذ هو قتي ؛ ويقال إنه لم يكن في أثينا كلها من كان يفوقه رشاقةً وتناسقاً وجمال تركيب ، حتى إنهم اختاروه في الاحتفال بالنصر في سلاميس ليقود فريق المنشدين ، فكان يتقدمهم عازياً مجلجل الرأس بالغار والأزهار ، عازفاً على قيثارة أشجى النغم ، فكان قننة الاحتفال كله

وكان يجمع إلى جمال الجسم ورشاقة اللفتات محاسن النفس الخيرة وفضائل القلب التقى ، فكان يحب الناس جميعاً ويقسمهم جميعاً على محبته والشف بخواهب روحه

ولقد شدا الموسيقى — وربما الشعر — عن الفنان الكبير إيروس ، الذي كان له أكبر الأثر في توجيه سوفوكليس والذي حجب إليه الإنشاد وموسيقى المسرح فجذبه إلى الفن وأقصاه عن الفلسفة ، وضمن له الظفر على أنطاب الأدب وغول الشعر في عصره ، وهو لما يزال شاباً أحدث السن

ويذكرون أنه نال أولى جوائز ، وكان منافسه إذ ذاك إسخيلوس الشيخ ، وهو في الثامنة والعشرين من عمره ، بدرامة

وطنية مقفودة تدعى (تربتوليموس) ويختلف المؤرخون في السبب الذي أظفر الشاعر الشاب بالشاعر الشيخ ، وأشهر الروايات أن إسخيلوس كان قد سخر بالآلهة سخرية وانحفة لاذعة في درامته التي تقدم بها للمباراة مما أهاج الرعاع عليه وأثارهم ضده حتى كادوا يقتكون به وهو يمثل لولا أن حال أخوه بينه وبينهم ، كاشفاً لهم عن ذراعه التي جرحت في سلاميس دفاعاً عنهم ، وزياداً عن بيضة الوطن . . . ويقولون إن سوفوكليس كان قد أغرى القضاة بماله الكثير ، وإنه نحمهم ، وكانوا خمسة ، حينما حان وقت فرز الأصوات وتقدم القادة العشرة المعجبون بدرامة سوفوكليس الوطنية فزخرفوا الحكم ودلّسوا النتيجة وفضوا بالجائزة الأولى للشاعر الشاب . وأيضاً كان السبب فقد ترك الحادث في نفس سوفوكليس أثراً عظيماً من الزهو ليس بعده إلا أثر الحسرة والمرارة في نفس إسخيلوس . . ولم يضار المسرح ولا الأدب بما حكم للأول على الآخر ، فقد نظم إسخيلوس أسمى روايته بعد ذلك ، كما أن سوفوكليس صمد لخصمه ، وراح يعزز فوزه بشرات ثم عشرات من أرفع ما شهد المسرح من المآسي في جميع عصوره .

ذاك ، وقد ظفر سوفوكليس بالجائزة الأولى عشرين مرة ، وبالجائزة الثانية أكثر من ثلاثين ، وقلما هبط إلى الجائزة الثالثة . ومهما يكن لأمواله من أثر في هذه النتائج الباهرة فما لاريب فيه أن أدبه وفنه ودقته كانت العوامل الأولى الأساسية في تعدد مرات انتصاره . . . أما إسخيلوس فقد فاز بالجائزة الأولى خمس عشرة مرة ، على قلة منافسيه وهوان شأنهم ، كما فاز بها يوربيدز — سيد شعراء الدرام — خمس مرات فقط

ولما كان سوفوكليس جليلاً بارع الجدل ، فقد كان يقوم بنفسه بتمثيل أدوار النساء في صدر شبابه ، كما ذكرنا أنه أدى دور نوزيكا في درامته (نسوة غاسلات) . وكانت ظلال جماله تنعكس على فنه ، فكان يؤثر البساطة في التعبير والتفكير ، ويفضّل العاطفة الجياشة الثائرة على العقل الخامد الرزين ، ولذلك لم يفكر في أن يرتفع إلى أفق إسخيلوس في بروميوث مثلاً ، لأنه كان يتجنب عمق الفكرة التي تجمد قرائح النظارة وتكدها ، ويؤثر أن يشب في قلوبهم حرائق من الألم والتأثر في روعة من الشعر العالي وجمال من الفن الدقيق .

وقد عاش سوفوكليس حياته الطويلة هادئاً لا يكثر صفوه شيء ، حتى ناز في أعماقه شيطانه الفنان فوصل أسبابه بأسباب غادة سيئة السيرة فاسدة الخلق تسمى تيوريس — اضطره فنه على ما يبدو لنا من تحليل حياته إلى أن يتخذها خلية تذكى مشاعره ، وتصل إلهامه ، ونجى من قلبه موات الشيوخوخة ، وتدفعه من ربح العمر الباردة... لكن سلته بها قد افتضحت آخر الأمر ، وكان ينفق عليها بسخاء غريب فثار ولده يوفون وشكاه أمام القضاء طالباً الحجر عليه وإقامته وصياً ليحول بين أبيه وبين تسرب ثروته وبمثرتها تحت قدمى تلك (المحظية) المباشرة الملوكة!...

وهنا تكتسح عظمة سوفوكليس تدبير أعدائه ، فإن ولده يرميه أمام القضاء بتهمة السخة والسفه ، فإيكاد بقولها حتى يقف الشاعر العظيم ، ثم ينسخ التهمة بالقائه وتمثيله إحدى قطعه الخالدة من درامته (أوديبوس في كولونوس) التي كان ينظمها خلال تلك المحنة ، وسرعان ما يصفق له القضاء الذين خلبهم بشعره الرفيع الرصين ، وفنه الجليل العالي ، وتمثيله القوى الخلاب ، ثم يحكمون بسلامة تفكيره وحرية المطلقة في تصرف شئونه... وهكذا اعتبر القضاء غرام سوفوكليس من شئونه الخاصة فلم يدمغوه بحكم يذهب بشرفه وربما كان يقضى على تلك العبقرية الرائعة التي عكست سناها على جميع البعريات في جميع عصور المسرح .

... ففرام سوفوكليس بالغيد الأماليد لم يكن إلا إيماءً قنباً تستلزمه حياة الفنان وتقصره عليه ميوله . ويكاد كل فنان يكون خاضعاً لثل هذا الإيماء ، وقد خضع له إسخيلوس من قبل ، فقد روى أنه لم يكن يستطيع أن يحسن شيئاً من الشعر الرفيع إلا حين تلب بلبه حجاباً الخمر . وقد قال فيه سوفوكليس إنه نظم أبدع روائعه وهو لا يدري ماذا يقول ولا ماذا ينظم... على أن هذه الناصرة الفرامية قد ذهبت جفاء في حياة سوفوكليس ، فلم تترك فيها وصمة ، ولم تلطخها بالمار ، بل على الضد من ذلك فقد زاد شغف الناس بشاعرهم العظيم حتى قيل إن طائفة منهم عبده بعد موته عام ٤٠٦ بإسم الإله البطل دكسيون الذي يؤثر أنه ضاف في منزله الإله أسكليبيوس واعتبروا قبره في طريق دكليا دار حج لهم

ولد سوفوكليس سنة ٤٩٦ وتوفي سنة ٤٠٦ ق. م وفاز على

إسخيلوس وهو في الثامنة والعشرين ثم لبث يمد المسرح نيفاً وستين عاماً بمعدل درامتين كل سنة ، فهو بذلك قد ملأ القرن الخامس العظيم من تاريخ أثينا بأدبه وروائعه ، رشده جلائل الأعمال التي تمت في هذا العصر وعادت بالخير الجزيل على اليونان خاصة وعلى الإنسانية عامة... لقد كان سوفوكليس أنضر زهرة في حديقة بركليس العظيم... لقد شهد نهضة الفن وسام في نهضة الدرام ، ووقف من شرفة برجه الرفيع يطلع على ذاك الصراع العنيف بين أثينا وأسبرطة ، ويرى إلى الديمقراطية تصارع عسكرية الأسبرطيين قتساجلها مرة ، وتوائفها مرة ، ثم يموت بركليس فتسقط أثينا في اليدان وتفزوها أسبرطة بعد موت سوفوكليس بمائتين (٤٠٤) ... عاصر سوفوكليس هذه الأحداث الجسام لكنه لم يتدغم فيها ، لأنه كان يشهدها بطبع الفنان الذي يؤثر الراحة ويخلد إلى الأدب ويطلب السلامة ، لا سيما إذا كان في مثل ثروة سوفوكليس وجاهه اللذين رشحاه لمضوية أعظم مجالس الأمة بالرغم من قلة درايتة بالأمور الإدارية وعدم بصره بشئونها... حتى قيل إنه كان إسمعة بين زملائه يوافق إذا وافقوا ولا يدرى على أي شيء يوافق ، ويرفض إذا رفضوا ولا علم عنده بما يرفضون.. لكنه مع ذاك أديب أثينا وفنسانها وبلبلها التريد الذي يهذب ويوحى ويلهم ويواسى ويسلى ويبكى ويفنى وينفذ إلى سويداء القلوب

لقد كان إسخيلوس مارماً متجهماً يرى بشر كالقصر حينما يرتطم بالقضاء والقدر ، وكان يؤثر الأسلوب الفخم في الأداء والمباراة الفصيحة والمجاز المميت ، وكان ينقصه كثير من روعة الفن... أما سوفوكليس فقد خلص من كل القيود التي تحول بينه وبين قلوب الناس... إنه لم يرتبط بنظام الثلاثيات الذي أخذ به إسخيلوس نفسه ، بل كان يعمد إلى الموضوع الذي كان إسخيلوس ينظمه في ثلاث درامات فيجعله هو درامة واحدة في ثلاثة مشاهد^(١) مستعيناً على ذلك بسرعة الأداء وتقصير الحوار وتركيز النرض والمحافظة على الوحدة في المباراة السهلة والبيان الهين

(١) يقال إن الذي ابتكر هذا هو ألسامر أرسطرخوس أحده أناد سوفوكليس

وليس هذا هو كل ما أدخله سوفوكلس على الدراما اليونانية بل لقد أدخل عليها ألواناً من التجديد لم تلت الجيور أن شغف بها وأجاد تذوقها ، فمن ذلك اتخاذ المناظر المنقوشة ثم اقتصاده في التحويل في كل من الصوت والملابس التنكرية وإيثاره النشاط ومقته للحركة البطيئة التي تشل الممثل وتربكه وتذهب بروعة الأداء وتنشوه جمال التمثيل ...

لقد كان سوفوكلس وسطاً ما بين إسخيلوس ويوريبيدز ، لأنه وإن يكن قد حافظ على المنصر الديني في معظم درامته فخرى بذلك في غبار إسخيلوس إلا أنه اقترب إلى الناس وابتمد عن الآلهة ولم يرفرف دائماً فوق شعاف الأولب كما كان يصنع إسخيلوس ... لقد عرف القلب الإنساني واكتشف ما فيه من الكنوز التي لا تقوم بدورها دولات الدراهم ... لقد لمح القبس المقدس الذي يعمر قلوب البشر ... القبس الإلهي ! .. الحب ! .. لقد أشركه في دراماته ولم يأنأ به كما صنع إسخيلوس ... لقد جعل له نصيباً أوفى في توجيه كثير من درامته وحل عقدها . واستطاع أن يصوغ له اللغة البراقة الدافقة والأسلوب المصطبب الملهب فجاء كلامه عنه كلام المحرب ذي الصبوات إسمع إليه ينظم للخورس هذه الأنشودة المألية في درامته أنتيجوني :

لله أنت يا حُب ! أيها الظافر بنا في كل حلبة !

أيها المحارب الذي حطامنا أسلابه !

لله أنت إذ تكمن في خدود المندارى الناعمة كالخمّل

ترصد فرائسك في غيب الليل ، طاوياً الموج

رفاقاً في الحراج والغاب ، والمضاب والتلاع

وأكواخ الرعاء

لا يمترض سبيك أحد .

الكل يخضمون لك

الناس والآلهة ... سواسية جميعاً

كاهن مهزومون في ميدانك

يستولى عليهم جنونك

صناع يا حُب ! لشد ما تضل الهداة !

فيتردون في الهلكة بأيديهم^(١) ؟

(١) نوسطانا في النقل بين ترجمتي كامبل وهوبنلو

وكما أجاد سوفوكلس في كل ما كتب عن الحب الفرائي ، فكذلك قد أتى في سائر ألوان الحب بما لم يستطعه غيره ، ففي درامته إلكترا يصور لنا الحب الأخوي تصويراً رائعاً شائقاً وبعيداً أحاسيس الطفولة تعبيراً هيناً ليناً ، فيه من ضعف الصغر وسذاجته وأحلامه ما يجعله أقرب إلى الطبيعة مما صنع إسخيلوس في أورست

كذلك كان سوفوكلس بارعاً إلى آخر حدود البراعة في تصوير شخصيات النساء . وقد عني فيهن بناحية الضعف ولم يعن بناحية القوة والصرامة كما صنع إسخيلوس في كليتمسترا ... عني بناحية المحبة والمطف والحذب والتألم والبكاء والخوف ولم يؤثر أن تكون بطلاته جارات عاتيات كبنيات لانوس اللاتي قتلن أزواجهن ليلة الزفاف إلا واحدة ، أو كزوجة ممنون التي تقتل زوجها وتؤثر عليه عشيقاً لم تحبه ولكن ربطه بها التدبير السيء والمشاركة في الفرض الوضع

وقد ثار سوفوكلس على أحد الأوضاع الهامة التي أخذ إسخيلوس بها نفسه ؛ فقد أجاز حوادث القتل وسفك الدماء على المسرح وكان بذلك يثير شعجون النظارة ويمزق أحشائهم من الألم ، ففي درامته (أجاكس) ينتحر البطل وتتصب دماؤه أمام المتفرجين ، وفي أوديب يسمل الملك عينيه فينجس الدم منهما ويصيح من الألم مستنجداً أن يفوده أحد ... هذا إلى المشاهد التي كان يتجنبها إسخيلوس ويحجب نظارته شهودها ... فقد أوقف سوفوكلس كليتمسترا تبكي تحت سكين ولدها قائلة له : « حنانيك يا بني لهذا الثدى الذي غذاك بلبانه ! » وتكون ابنتها إلكترا واقفة عن كذب فا تكاد استغاثه أمها تصك أذنيها حتى تقول محرمة أخاها على قتل أمه : « وهل استشمرت حناناً لك أو لأبيك من قبل ؟ » ... أو ذلك المشهد الرائع الفاجع من مشاهد (فيلوكتيس) حينما يظهر البطل في غمرة من الدهول فيملأ المسرح أنيناً ويثير في قلوب النظارة زوابع هائلة من الألم والوجد

يعد المسرحيون هذه الظاهرة عيباً في فن سوفوكلس ، بيد أنه كان يوجه دراماته وجهات تحم أن يمرض تلك المشاهد على نظارته ، وكان له من روعة الفن وعبقريته الأداء ما يحيل هذه